

## وللمقهى تاريخ ... المقهى كمكون من مكونات المشهد الثقافي والاجتماعي بالمغرب العربي ما بين القرنين السادس عشر ومنتصف القرن العشرين

د. صالح علواني

باحث في التاريخ والتراث المغاربي

تونس

قد يذهب في ظن البعض أن الإنتشار الحالي للمقاهي يجعل منه مشهدا مألوفاً لا يجلب الانتباه. لكن لا بدّ من النظر للمقهى من زاوية أخرى أهم، ونعني بذلك ما يمكن للمقهى أن يقدمه للمجتمع. فمنذ القرن الثامن عشر جلبت القهوة اهتمام الكثيرين سواء كانوا من المستهلكين أو من الدارسين من مختلف الاختصاصات : تاريخ، كيمياء، طب، اقتصاد، بيولوجيا،... من دون ذكر الشعراء والكتاب وبعض الموسيقيين.

أما بالنسبة للعالم العربي والإسلامي، فقد تعددت الدراسات في السنوات الأخيرة حول القهوة والمقهى وشملت عدة مجالات منها بالخصوص الاجتماعي، والانتربولوجي والتاريخي. فالمقهى تحوّل شيئاً فشيئاً إلى منافس جدّي للمسجد. وفي كلمة، أصبح المقهى يحتل دوراً محورياً لدى جميع الشرائح الاجتماعية وذلك منذ القرن السادس عشر.

سنحاول من خلال هذه المداخلة طرح موضوع المقهى وسيقودنا هذا العرض إلى تقديم بسطة تاريخية حول انتشار استهلاك هذه المادة في أنحاء مختلفة من العالم مع التركيز على بلاد المغرب آخذين أهم الأمثلة من الجزائر. كما سنحاول إبراز مختلف الوظائف والأدوار التي قام بها المقهى بصفته مكوناً بارزاً من مكونات المشهد الثقافي والاجتماعي وذلك في الفترة الممتدة ما بين القرنين السادس عشر و النصف الأول من القرن العشرين، مقسمين هذا الحيز الزمني إلى جزأين : ما قبل 1830 وما بعد هذا التاريخ.

### 1 - ما قبل 1830 :

#### أ - مقهى الشرق ومقهى الغرب

منذ القرن 15 ظهرت أولى "دور القهوة" باليمن (1470 م). وكان أكثر مستهلكي القهوة من المتصوّفة. ثم انتقلت تجارة القهوة من اليمن إلى مكة والقاهرة وإسطنبول. فقهاء الظاهر لم يستسيغوا انتشار استهلاك القهوة. ذكر الجزيري أن أمير مكة أمر سنة 1511 بحرق كل كميات القهوة وإغلاق دور القهوة على إثر المصادمات التي حدثت بين مؤيد ورافض لها.

ولكن لم يتم منع شرب القهوة لأنها لا تُعدّ من ضمن المسكرات لتحريم. كما لم يكن الباب العالي شديد المعارضة لاحتساء القهوة في أماكن مخصصة لها والنتيجة وصول القهوة إلى بلاد المغرب عندما كانت كل من ليبيا وتونس والجزائر تابعة للسلطنة.

أما بالنسبة لأروبا، التجار الإيطاليون جلبوا القهوة إلى أروبا. ظهرت أول "دار قهوة" في انجلترا سنة 1650.

ما عرف بـ "مقهى الغرب" Café de l'Occident لعب دورا مهما في تسهيل التواصل الاجتماعي وفي نشر قيم الحداثة والأفكار الثورية ومنها تسربت العديد من الأطروحات السياسية إلى مختلف الطبقات الاجتماعية بمختلف مستوياتها الثقافية. في فرنسا قبل الثورة - 1789- كانت "دور القهوة" تستوعب فئات اجتماعية مختلفة وأصبحت باريس تُعدّ ما لا يقل عن 4000 دار قهوة سنة 1807.

يختلف الأمر تماما بخصوص دور "مقهى الشرق" café d'Orient. إذ اننا ننتقل من مقهى يمجّد ثقافة التنوير ("مقهى التنوير") إلى مقهى "الثقافة الشعبية" و ثقافة تمجيد الماضي. من هنا نلاحظ أن نفس المادة المستهلكة أي القهوة ونفس الأماكن والفضاءات أي "دور القهوة" لا تفرز دائما نفس النتائج أي نفس التدافع الاجتماعي والثقافي.

## ب -المقهى بالمغرب العربي

نورد ثلاث شهادات من مدينة الجزائر.

يقول Père Dan الذي كان بمدينة الجزائر ما بين جويلية وسبتمبر 1634 في وثيقة نشرها سنة 1637 : " إنها عاداتهم (يقصد أتراك الجزائر) أن يجتمعوا منذ الصباح في الشوارع الفسيحة أين يكثر التجار، وفي الساحات العمومية أين تتمركز الدكاكين والأسواق. هناك أمام الدكاكين يجلسون للتحدث واحتساء القهوة في فناجين من الخزف بعد تعطيرها بماء الزهر. فالقهوة هي نوع من المشروب الأسود مثل الحبر يعتبرها محتسوها صحية ومذهبة للعطش. هم يشربونها بتأن و يترشفونها حتى يمضي من الوقت ما لا يقل عن الساعتين أو أكثر. أما ما تبقى من يومهم فيقضونه في تدخين الشيشة، وهم يجدون في ذلك متعة إلى درجة أن كلما اجتمعوا في مكان إلا وكانت الشيشة حاضرة ". مهما كان المكان الذي تحتسى فيه القهوة، أكان ذلك تحت حائط الدكان بحثا عن الظل أو في البيوت، فإن استهلاك القهوة قد مثّل مشهدا مميزا، مشهد رجالي بامتياز وله خصوصيات الطقوس من حيث التوقيت والمكان وتكرار العمليات بدقة متناهية.

أما de La Condamine (1701-1774) فيقول في سنة 1731 : " هناك بالقرب من دار الداي وفي بعض الأماكن الأخرى مقاه لم أدخلها ولكني وجدت في شكل قاعات فسيحة ذات أقواس تشدها أعمدة، يتبادل فيها الناس الأخبار كما عندنا في فرنسا. أما من لا شغل له سوى هواية الحديث في السياسة وكذلك الكسالى فكثيرا ما تراهم يترددون على هذه الفضاءات التي هي منبع الانتفاضات والثورات ولذلك تجدها ملأى بجواسيس الداي الذين زرعه في المقاهي وهو ما ذكرني بباريس. " في هذا النص إشارة للوظيفة السياسية للمقهى. هذا الفضاء العمومي الجديد الذي تحاك فيه "ثورات القصر" في إشارة إلى الصراعات السياسية بين الدايات ودور المقهى في ذلك.

بنانتي Pananti ونشرت سنة 1820 : " إن سكان شمال إفريقيا - les Maures - يجلسون بالمقاهي يدخلون ويشربون القهوة وأحيانا يتحولون إلى مقاهي توفر لهم متعة إضافية : راقصات ومغنيات شعبيات تتمايلن أمامهم وتثرن غرائزهم لا يشبه هذه المشاهد إلا الرقصات المقدسة بالهند (la bayadère)". وبذلك برز صنف جديد من الفضاءات العمومية للترفيه وتمضية الوقت يغلب عليه طابع الهدوء مقارنة بالضجيج الذي يميز المقاهي الشعبية. إذ يقول بانننتي " ما هو ملفت حقا هو الصمت العميق الذي يخيم على هذه القاعات عندما تبدأ الراقصات والمغنيات في إطراب الحاضرين ". وهكذا

فإن بروز النساء في فضاءات كانت مخصصة كلياً للرجال قد أدخل على المقهى سلوكات جديدة وعادات أخرى لم يألفها من قبل.

بقي المقهى حتى سنة 1830 بالجزائر محافظاً على الطابع الذي ميزه منذ ظهوره، فضاء حضرياً بحتاً ورمزاً للحياة الاجتماعية العمومية في المدينة أثر في طبوغرافيا المدينة : تكون **مشهد ثقافي حضري جديد يمكن تسميته بـ "حي المقاهي"** . وإذ بقي **المسجد** محافظاً على وظيفته الأساسية فإن **المقهى** أصبح يمثل نقطة لقاء بين الناس على اختلاف انتماءاتهم الاجتماعية والثقافية ولكن لأغراض أخرى. ولأن الإسلام حرّم القمار وألعاب الحظ نجد أن الألعاب الأكثر انتشاراً هي : في بعض المقاهي هي من صنف الشطرنج و"الدامة". أما في مقاهي الأحياء الشعبية فأغلب الألعاب هي لعب الورق والدومينو.

## 2- المقهى بعد 1830 : نشأة مجتمع مدني خلال فترة الاستعمار.

أراد المستعمر تحطيم المقومات الثقافية للبلاد. ولكن ليس من الغريب أن يكون المقهى وعلى خلاف ما توقعه المحتل، من بين العوامل التي ساعدت على التماسك الاجتماعي وربما كان ذلك كان أولى هزائم الاستعمار. كيف ذلك؟

عرفت المقاهي انتشاراً واسعاً داخل المدن وخارجها مع دخول المستعمرين. فكلما شقوا طريقاً أو مدّوا سكة حديدية إلا وأنشئوا حذوها مكاناً للراحة والتسليّة والانتظار. ومع مرور الزمن وبتشجيع من المستعمر خدمة لمصالحه نشأت حول " **مقاهي الطريق** " هذه نواتات قرى ريفية واستقر بها بعض السكان. والنتيجة : حدوث تحولات اجتماعية وثقافية عميقة.

أما العنصر الجديد في هذه التحولات بعد 1830 فمصدره **فتح الهجرة نحو فرنسا** مع بداية الحرب العالمية الأولى. والنتيجة المباشرة : انتشار العديد من المقاهي حتى في أقصى الأماكن النائية وذلك بالتزامن مع عودة المحاربين والمتقاعدين إلى قراهم وأريافهم معتبرين ذلك استثماراً مربحاً. فالمقهى أصبح يمثل لدى مرتاديه ذاك الفضاء العمومي المتعدد الوظائف الذي تقدم فيه العديد من الخدمات والذي يقصده من يبحث عن شغل أو عن مسكن للكراء أو حتى قضاء ليلة كعابر سبيل إضافة إلى الوظائف والخدمات الأساسية للمقهى. وإذا كانت البادية تأتي إلى المدينة عن طريق المقهى والضواحي الشعبية فإن المدينة تذهب أيضاً إلى الأرياف عن طريق المقهى وعن طريق ساعي البريد والراديو. وهكذا ينشر المقهى -حتى في المناطق الداخلية والبعيدة- ما يصدر من مكتوب وما يبيت من أخبار على أمواج الأثير.

هناك إذن تحولات مجالية وثقافية حدثت مع ظهور المقهى وانتشارها. وإضافة للمسجد والسوق الأسبوعية ها هو المقهى- هذا المولود الجديد- يلعب دوراً اجتماعياً وثقافياً مهماً. **مع عشرينيات القرن الماضي وبداية ثلاثينيات** لم يعد المقهى ذلك الفضاء الشعبي البسيط المتكون أثنائه من حصران وموائد منخفضة وأرضيتها من التراب بل بدأ التغيير يطال جل المقاهي من الناحيتين الأنتروبولوجية والمادية. فالطاولات والكراسي عوضت الموائد والحصران كما عوضت الإسمنت أو الجليز الأرضية الترابية. كما لم يعد القهوجي يحضر القهوة على الكانون الذي عوضه الموقد. إضافة إلى تحسينات أخرى أدخلت على المقهى وغيرت الكثير من ملامحه. أما الحريف فقد وجد نفسه في وضعيات جديدة فبعدما كان يحتسي قهوته مستلقاً أو متربعا أخذ وضعاً جسدياً جديداً في وقت تغيرت فيه علاقته بالزمن وبالمكان أيضاً.

إنه تغيير عميق أثر في العقلية والسلوكيات وأنماط التفكير خاصة لدى أولئك الذين اختلطوا كثيرا بالمستعمر. لكن **الثنائية الحضارية والثقافية** تواصلت بل لعلها تعززت أحيانا كرد فعل على سياسة الاستعمار.

لكن لم يتوقف دور المقهى عند الحدّ المذكور بل تجاوزه إلى تسهيل **بروز طبقات اجتماعية** جديدة ونشر **ممارسات ثقافية واجتماعية** جديدة. وبالفعل حتى عشية الحرب ع 1 بقي الشباب خارج الفضاء الذي يحتله المقهى، إذ كان حكرًا على الكهول. هذه المسافات بين الشباب والكهول كانت محترمة في العلاقات التي تسود التركيبة الاجتماعية التقليدية. إلا أن مشاركة الشباب في الحرب العالمية 1 جاءت لتغيير هذه المعادلة تدريجيا. ومع بداية العشرينات بدأ بعض الأطفال والشباب يمارسون بعض الأشغال مثل مسح الأحذية وتلميعها أو بيع الجرائد، إضافة إلى عشرات الطلبة والتلاميذ الذين خرجوا للدراسة. هؤلاء جميعا سيدخلون أنفسهم إلى جانب العائدين من الجبهة لتوّهم وربما بتأثير منهم ميالين إلى تجاوز التقاليد والعادات التي تسود في المجتمع التقليدي الأبوي. وأول مظهر من مظاهر هذا "التمرد" على التقاليد تمثل في **بداية ارتياد هؤلاء الشباب للمقاهي** دون حياء أو خجل من الكهول. النتيجة : ظهرت **قوة اجتماعية جديدة** وهي فئة الشباب تتراوح أعمارهم بين 14 سنة و20 سنة.

أما في نهاية الثلاثينات فقد أعطت الثورة الديمغرافية إلى هذا التوجه زخما غير مسبوق وأحدثت بذلك اهم تحول اجتماعي في ذلك العهد. وأصبح دخول الشباب إلى المقهى أهم وأحدث معطى أنترولوجي طرأ على الحياة الاجتماعية.

**أولا** ما أمكن تسجيله هو انتشار **جميعيات كرة القدم** مباشرة بعد الحرب ع1 تحت مسمى **المولودية**. وكان الحديث عن كرة القدم ومتابعة النتائج يتم عادة في المقاهي ولعل بعض المقاهي اختصت في ذلك (باب جديد- باب سويقة...في تونس مثلا). وفي العموم بدأت المقاهي تحتل مساحة متزايدة الأهمية في التلاقي والتواصل الاجتماعي وهو الدور الذي تلعبه المساجد أيضا لكن لأغراض أخرى.

**ثانيا** لا يجب أن ننسى **الدور السياسي** الهام الذي لعبه المقهى في نشر المعلومات والأفكار الجديدة والإشاعات أيضا. فمنذ القرن التاسع عشر كان المقهى يلعب دور **شبكات التواصل الاجتماعي** اليوم. إذ يمثل المقهى شبكة مستقلة لا يديرها طرف بعينه باستثناء صاحبه. وبما أن رواده من المحليين أساسا فالمقهى يمثل فضاء مستقلا عن سلطة المستعمر وأدواته، تنتقل داخله الأخبار والمعلومات بسرعة فائقة (téléphone arabe) وبنجاعة أحيانا.

فالمقهى هو بمثابة نافذة مفتوحة باستمرار على ما يحدث في المجتمع وما يحدث خارج البلاد في الشرق وفي الغرب على حدّ سواء كأخبار الحروب وأخبار الحج والحجيج وأخبار وضع الإسلام والمسلمين ورواد الإصلاح والمصلحين من إسطنبول ومصر والشام وغيرها.

ولعل أفضل ما نختم به مقالنا هو مساهمة المقهى في نشأة ما أصبح يعرف اليوم بـ **المجتمع المدني**. فالاهتمام بالشأن العام بدأ يظهر بجلاء بعد الحربين العالميتين 1 و 2 بالخصوص ومع انتشار وسائل الإعلام : الجريدة أولا والراديو ثانيا. وبفضل ما كان يوفره المقهى كفضاء عمومي يلتقي فيه الناس ويتقاسمون فيه أفراسهم وأتراسهم ويشكون فيه همومهم لبعضهم البعض نشأت لحمة اجتماعية حول بعض القضايا المشتركة منها بالخصوص الوعي بالقضايا الوطنية وقضايا الأمة. وأصبح الهدف لدى البعض ممن نشأ عندهم هذا الوعي هو السيطرة الرمزية على بعض المقاهي بهدف إحكام الصّراع مع مستعمر أراد تفكيك الروابط الاجتماعية التقليدية مستعملا في ذلك جميع الوسائل : سيادة القانون الذي

سنّه وجهاز إداري من صنعه ومركزية مفرطة من أجل إحكام السيطرة على البلاد والعباد. ولعل لكل هذه الأسباب أصبح المقهى محط أنظار السلطة السياسية المهيمنة وأصبح المقهى هدفا للمراقبة بفضل عيون زرعوا داخل المقهى أهمها وأنجعها النادل وصاحب المقهى ذاته.

لكن في أقل من جيل تحول المقهى من مجرد فضاء للتواصل الاجتماعي وتبادل المعلومات إلى مقهى للنضال ضد الاستعمار ليلتقي فيه المناضلون والسياسيون للتخطيط وتميرير المعلومة وكسب أنصار جدد. ولعل المقهى هو الذي مثّل الفضاء-النواة الأولى لتأسيس أحزاب وطنية قادت حركات التحرر من ربة الاستعمار. وحتى في بلاد المهجر فإن المقهى كان مأوى مثاليا للمناضلين والقادة السياسيين للقاء بالناس وتوعيتهم. كما أن الأحياء التي انتشرت بها المقاهي أضفت على المشهد المعماري والاجتماعي والثقافي وكذلك الاقتصادي طابعا مميزا اختلف اختلافا كبيرا عن تلك التي خصصت حصرياً للسكن كمشهد ثقافي حضري حي.